صدمة الحداثة

من ((الجهاز الخاص)) الى ((القاعدة))

عندما ترجم العرب افلاطون وارسطو وسقراط خرج من بينهم الفارابي وإبن سيناء وإبن رشد وإبن خلدون .. وعندما ترجم الأوربيون إبن سيناء والرازي وإبن رشد ومعهم ارسطو وفيثاغورث وغيرهم من العلماء والفلاسفة الأغريق الذين كان للفلسفة العربية فضل تعريف أوروبا بهم ، خرج من بينهم ديكارت وكانط واينيشتاين وهيغل وفوليتر وغيرهم من قمم النهضة العلمية و الفكرية الأوربية في العصر الحديث .

بالتوازي مع هذا الإتجاه استوعب الرعيل الأول من طلائع الفكر العربي المعاصر صدمة الحداثة على أثر إحتكاكهم بالحضارة الغربية في عصر الإستعمار أواخر القرن التاسع عشر ، وشرع بعضهم إلى ترجمة ديكارت وهيغل وكانط وفولتير ، فخرج من بينهم رفاعة رافع الطهطاوي ومحمد عبده ولطفي السيد وأحمد أمين وطه حسين و قاسم أمين وغيرهم من روّاد النهضة الفكرية التي انطفأت في الثلاثينات ، على أثر ظهور جماعة " الأخوان المسلمين " وانبعاث الفكر السلفي المتشدد على يدها ، كرد فعل لإلغاء الخلافة العثمانية رسمياً في تركيا بعد قيام ثورة مصطفى كمال اتاتورك التي أنهت نظام الخلافة وأقامت على أنقاضه أول نظام جمهوري في العالم الاسلامي

أحمد الحبيشي

بعد عشرسنوات من هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى عام ١٤ ١٩م – ١٩١٨م ، وإلغاء الخلافة الإسلامية رسميا ، ظهرت جماعة " الأخوان المسلمين " في محاولة حركية لسد الفراغ الناشئ عن غياب دولة الخلافة في العالم الإسلامي ، وتطويق الأفكار القومية والإشتراكية والليبرالية التي تزامن انتشارها في العالم العربي والإسلامي مع سقوط الخلافة . وقد تقاطعت مع اهداف الجماعة الوليدة مصالح متناقضة لقوى داخلية وخارجية تركت ظلالا ثقيلة على مسيرة جماعة " الإخوان " وتحالفاتها العربية والدولية وخطابها السياسي والآيديولوجي !!

حرصت هذه الحركة على أن تزاوج بين الأفكار السلفية المعتدلة والمعاصرة للشيخ رشيد رضا والمخرجات السلفية للبيئات البدوية التي صاغت - في وقت لاحق - الجهاز المفاهيمي لفكر وثقافة ابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن رجب الحنبلي ومحمد عبد الوهاب ، وجنحت إلى تكفير كافة المذاهب غير السنية كالجعفرية والزيدية والاسماعيلية والأباضية ، ولم تستثن من ذلك بعض الفرق السنية كالأشعرية والصوفية .

كان حرص جماعة " الأخوان المسلمين " واضحا على ربط هذه المخرجات السلفية بأكبر مرجعية سلفية متشددة في التاريخ الاسلامي ، وهي الأمام أبو حامد الغزالي ، ما أدى إلى تمهيد التربة لولادة سلفيات أخرى مدمّرة ، تمثلت بدايتها الأولى في سلفية سيد قطب المتطرفة ، حيث يصف الكثيرمن المفكرين كتابه التكفيري الشهير " معالم في الطريق " الصادر عام ١٩٦٤م ، بـ (مانفيستو) الإسلام السياسي المتطرف ، الذي أنجب في أواخر القرن العشرين حركات جهادية مقاتلة ومنظومات فكرية متطرفة في عدد من البلدان العربية والاسلامية على طريق إقامة دولة الخلافة !! .

وقد اندمج معظم هذه الحركات في إطار " الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والنصارى " ، وتلاقحت افكارها المتطرفة في خلاصة البيان الذي صدر باسم هذه الجبهة في فبراير ١٩٩٨م ، معلناً إنطلاق شرارة الحرب الدينية و " بدء المعركة الفاصلة بين فسطاط " الاسلام " الذي تمثله هذه الجماعات ، و " فسطاط الكفر " الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية والدول المتحالفة معها والموالية لها ، بحسب ما جاء في ذلك البيان.

شكلت الجبهة الإسلامية العالمية " أطلقت اليهود والنصارى " جهازا خاصا " مقاتلا أطلقت عليه اسم " القاعدة " وأعلن هذا " الجهاز الخاص " مسؤوليته عن عديد من التفجيرات والإعتداءات التي استهدفت مصالح أميركية وغربية ، وابرزها تدمير البارجة الأميركية (كول) في ميناء عدن عام ٢٠٠٠ وتفجيرات ١١ سبمتبر ٢٠٠١م الإرهابية في واشنطن ونيويورك ، وتدمير ناقلة النفط الفرنسية (ليمبرج) في ميناء المكلا عام ٢٠٠٢ .

وبحسب فكر هذه الجماعات " لا يجوز أن يبقى شبر على الأرض لا يحكمه الإسلام وشريعته ، ولا يجوز ان يبقى انسان على الأرض خارج دين الاسلام .. والله ما ارسل نبيه عليه الصلاة والسلام ليدعو ويبقى في مكانه ، بل قال له ولأتباعة : (وقاتلوهم حتي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) أي قاتلوهم حتى يكون الاسلام حاكما علي الأرض بمن فيها وما عليها " على نحو ما جاء في شريط صوتي للشيخ عبدالله صعتر أحد شيوخ أحزاب ((اللقاء المشترك)).

يمكن ملاحظة جذور هذة الافكار في كتاب " معالم في الطريق " الذي قال فيه سيد قطب علي نحو قاطع : " ان العالم يعيش اليوم كله في جاهلية ، والإسلام لايقبل انصاف الحلول ... فاما اسلام واما جاهلية ، وليس هنالك وضع اخر نصفة إسلام ونصف الآخر جاهلية " .

ويحدد سيد قطب بوضوح ودقة الطريق الذي يجب على المسلمين سلوكه من اجل أن يتسلم الإسلام قيادة العالم بمن فيه وما عليه حيث يقول : " إنها لسذاجة أن يتصور الإنسان دعوة تعلن تحرير النوع الإنساني في كل أرض ، ثم تقف أمام العقبات في وجه هذه الدعوة تجاهدها باللسان والبيان . فلا بد من إزالة هذه العقبات أولا بالقوة " ويرى سيد قطب أن الهدف الرئيسي للإسلام هو إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر ، مشيرا إلى الطبيعة الهجومية للإسلام ، ونافيا عنه في الوقت نفسه طابعه الدفاعي .

تجد النتائج والخلاصات التي وصل إليها سيد قطب ، مقوماتها في ذلك الحجم الهائل من العداء لدور العقل في الحضارة الإسلامية .. فقد سار سيد قطب على خطى أبي حامد الغزالي الذي يطلق عليه السلفيون صفة " الإمام المجدد حجة الإسلام " و يحظى بتوقير وتكريم شديدين في أوساط مختلف التيارات السلفية المتشددة والمتطرفة والمعتدلة على حد سواء ، ويعد القاسم المشترك فيما بينها بوصفه أشهر مرجع معاد للفلسفة والعقل النقدي في الموروث الفقهي الإسلامي .

ولعل ذلك هو ما دفع بعض المفكرين العرب إلى الإعتراف بأن الفقهاء والمفكرين المسلمين سبقوا هنتغتون في الترويج لموضوعة صدام الحضارات ، " فليس قليلا ما كتبه أبو الأعلى المودودي وأبو الحسن الندوي وسيد قطب وأخرون ممن " لم يجدوا في العلاقة بين الحضارة الإسلامية وغيرها من حاكم سوى التناقض والصدام ، حيث تشكل كتابات هؤلاء، المادة الثقافية الأساسية التي تغذى منها جيلان من (الصحويين) ، جيل عمر عبد الرحمن وعبود الزمر وسعيد حوا وعبد السلام فرج ، وجيل تنظيم (القاعدة) ومن ذهب مذهبهم في هذه الأفكار " .

والحال أن الفقه المعادي لدور العقل والفلسفة الذي صاغته وتمسكت به كافة المرجعيات السلفية باختلاف طبعاتها المتشددة والمتطرفة والمعتدلة ، يقود بشكل تلقائي إلى معاداة الثقافات والحضارات الأخرى التي يلعب النشاط العقلي دورا حاسما في الإنفتاح عليها وتمهيد التربة للتفاعل فيما بينها .

ولذلك ليس غريبا أن يرتبط العداء لدور العقل النقدي وللفلسفة وعلم المنطق والعلوم الطبيعية وغيرها من المناشط العقلية التي انتعشت في مرحلة إزدهار الحضارة العربية الإسلامية وعصرها الذهبي ، ليس غريبا أن يرتبط هذا العداء ، بمعاداة الثقافات الأخرى والخوف من التلاقح الثقافي معها بدعوى الدفاع عن الهوية والتمسك بالخصوصية ، وهو ما وصفه الدكتور أحمد كمال ابو المجد بأنه دعوة إلى " الإنتحار الحضاري " .

لاريب في أن ذلك يساعدنا على تفسير الدعوة إلى التمسك بنمط حياة الأسلاف وثقافتهم والتي تجد تعبيرها في قول سيد قطب : " إن الدعوة الإسلامية خرّجت جيلا مميزا في تاريخ الإسلام كله وفي تاريخ البشرية جميعها هو جيل الصحابة . وكان النبع الأول الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن وحده ، فكان له في التاريخ ذلك الشأن الفريد . وعندما صُبّت في هذا النبع فلسفة الإغريق ومنطقهم ، وأساطير الفرس وتصوراتهم ، وإسرائيليات اليهود ولاهوت النصارى وغير ذلك من رواسب الحضارات والثقافات في البلدان التي فتحها المسلمون ، اختلطت الينابيع ، واختلط هذا كله بتفسير القرآن ، وعلم الكلام ، كما اختلط بالفقه ، فلم يتكرر ذلك الجيل . وكان ذلك الإختلاط عاملا أساسيا من عوامل ذلك الاختلاف البيّن بين الأجيال وذلك الجيل المميّز الفريد من السلف الصالح "

منذ أن تحوّلت الدولة الإسلامية إلى مُلك سُلطاني عضوض ، تعرّض مشروع الإسلام التغييري الثوري للتشويش والتلبيس والتعطيل ، إذ أصبح الأمن الداخلي المطلق هاجسا رئيسيا للنخب الحاكمة التي لجأت إلى السيف والذهب – الترهيب والترغيب – لشراء السلام الداخلي وانتزاع الشرعية .. فكانت النتيجة نكوص وتراجع عملية التغيير لصالح التعايش مع مصالح واحتياجات البنى التقليدية السائدة في المجتمع وإعادة إنتاج ثقافتها وقيمها الجاهلية التي جاء الاسلام لتغييرها .

من المفارقات الخطيرة أن الفقهاء المسلمين تحوّلوا إلى رجال دين على غرار الإكليروس المسيحي ، ونهضوا بدور هام في تأطير ذلك التعايش لصالح الطرفين (السلطة والبنى التقليدية في المجتمع) ، بعد دخولهم كشريك وسيط ضمن مفاعيل هذه العلاقة .

كان النشاط العقلي يعد مظهرا للمعارضة ، إذْ يؤدي التفكير العقلي في نهاية المطاف إلى نقد البنى الداخلية للأفكار والظواهر ، وإقتراح وإبداع حلول جديدة لمشاكل المجتمع الإسلامي ، ولذلك تعرّض العقل للعدوان عليه ، وقام فقه التشدّد بدور وظيفي خطير في العدوان على العقل .

وبالنظر إلى الدور البارز الذي لعبه الفقه المتشدد ورموزه الفكرية في مواجهة النشاط العقلي وتكفير الفلاسفة والمشتغلين بالعلوم الطبيعية ، يتوجب التوقف عند أفكار " الإمام المجدد حجة الإسلام أبي حامد الغزالي " المتشددة والمعادية للعقل ، وهي الأفكار التي احتلت مكانا محوريا في الفقه السلفي المتشدد ، ولعبت دورا مؤثرا في تشكيل ثقافتنا لقرون طويلة ، فيما أدّى توقيرها والتمسك بها ، وإضفاء القداسة عليها والإصرار على إعادة إنتاجها ، إلى دخول ثقافتنا العربية والإسلامية نفقا مظلما أسفر عن مأزقها الراهن في هذه الحقبة من تطور عصرنا وحضارته الحديثة .

تعود صفات القداسة التي أضفيت على أفكار الغزالي إلى الإعتقاد الديني بالحديث الذي ينسب إلى أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : " يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها " .

وكان لهذا الإعتقاد أثر كبير في أن يتحوّل الإمام أبو حامد الغزالي من العزلة إلى معترك الدعوة والعمل في بداية المائة الخامسة الهجرية ، حيث تملك الغزالي شعورٌ بأنه الإمام المجدد في مائته وعصره على نحو ما جاء في كتابه " المنقذ من الظلال " حيث قال : " فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة والخروج من الزاوية ، وانضاف إلى ذلك منامات الصالحين كثيرة متواترة تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة ، فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات . وقد وعد الله سبحانه باحياء دينه على رأس كل مائة ، ويسّر الله تعالى الحركة إلى نيسابور للقيام بهذا المهم " .

يبدأ الغزالي دوره الملتبس في " احياء الدين وتجديده " في المئة الخامسة الهجرية بهجوم على العلوم الطبيعية التي شهدت إنتشارا واسعا في العصر العباسي الذهبي الأول ، وأسهمت بقسط كبير في إزدهار الحضارة العربية إلى جانب المناشط الواسعة للحركة العقلية التي تميز بها ذلك العصر .

ينفي الغزالي أهمية العلوم الطبيعة ، ويبالغ في التقليل من قيمتها ، ويتشدد في تحقيرها وتكفير المشتغلين بها قياسا إلى موقفه الداعم لعلم الفقه . ويصل عداء الغزالي للعلوم الطبيعية إلى حد أنه نفى أي فائدة منها لحياة الانسان ومعيشته وتطوره الحضاري ، حيث يقول في كتابه الشهير " جواهر القرآن " بعد أن استغرق وأطال في شرح أهمية علم الفقه ومكانة أهل العلم في هذا المجال :

" إنما أشرنا إلى العلوم الدينية – يقصد الفقه – التي لا بد من وجودها ، ولا يكون العالم إلا بها ، حتى يتيسّر سلوك طريق الله تعالى والسّفر إليه . أما هذه العلوم الدنيوية (يقصد الطبيعية) فلا يتوقف على معرفتها صلاح المعاش والمعاد ، فلذلك لم نذكرها " .

وكما هو الحال في هذ الكتاب ، فقد هاجم أبو حامد الغزالي - في بقية كتبه - الفلاسفة والعلماء الذين اشتغلوا بالبحوث العلمية ، وألفوا وترجموا فيها ، ورفض الإعتراف بالمنهج العلمي الذي يقرر أن الفلسفة تبحث عن الحقيقة وتقدمها إلى العلم فيما بعد ، وهو ما أكده مسار تطور العلوم المعاصرة قبل وبعد الثورة الصناعية الكبرى في العصر الحديث .. وتمادى الغزالي في تحقير الفلسفة ووصفها بـ " البهتان " فيما وصف عمل ونشاط العلماء في مجال الفلسفة بـ " التهافت " على البهتان بحسب ما جاء في كتابه الشهير " تهافت الفلاسفة " الذي رد عليه ابن رشد بكتابه الشهير أيضا " تهافت التهافت " . أما أخطر الأفكار التجديدية التي يزعم الغزالي وأضرابه أنه جدد بها الدين ، فهي تلك التي عارض فيها بقوة ، أن يكون المشتغلون والباحثون في علوم الطب والفلك والتشريح والكيمياء والرياضيات في عداد العلماء !! .

على درب الغزالي سارت ثقافتنا وأصبح الفقهاء والمتكلمون في مجال النقل عن النصوص الفقهيه القديمة هم العلماء ، فيما أصبح تعريف العلم مقصورا على الفقه . وبعد كتابه " جواهر القرآن " جاء كتاب " إحياء علوم الدين " الذي اشتهر به الغزالي ليحوي مجموعة من الأفكار التي يستطيع الباحث فيها تفسير أسباب تراجع الحضارة العربية الإسلامية ، ودخولها منذ المائة الخامسة الهجرية ، مرحلة جديدة إتسمت بأفول ذلك الوهج والبريق اللذين تميزت بهما فترة صعود هذه الحضارة في العصر العباسي الأول .

صحيح أن أفكار الغزالي المتشددة ضد الفلسفة والعلوم الطبيعية حاولت التماهي مع العقيدة الدينة ، إلا أنها لم تتمكن من إحتكار تمثيلها قطعا وحصرا ، ولم تنجح أيضا في قطع الطريق أمام محاولات أخرى للإحياء الإسلامي الصحيح لهذه العقيدة في أوقات متفرقة . أما قدرة أفكار الغزالي على البقاء لفترة طويلة ، فلا يعود سببها إلى قوتها أو إلى أنها تمثل تجديدا للدين والعياذ بالله ، بحسب ما يزعم به غلاة المتشددين و المتطرفين الأصوليين .

يبقى القول إن انتعاش الاتجاهات المحافظة والمتشددة في التاريخ الإسلامي يعود في تقديرنا إلى الظروف التي مر بها المسلمون في حقبة الغزو الصليبي وحقبة الغزو المغولي ، وصولا إلى السيطرة العثمانية التي سبقتها سيطرة السلاجقة المرابطين في نيسابور التي اعترف الغزالي بأنه ذهب إليها وعاد منها برسالة " تجديد وأحياء الدين " في المائة الخامسة من عصره ، وما رافق ذلك " التجديد والإحياء " من هدم للبنى الثقافية الحضرية ، وتصفية لكنوز المعرفة العلمية ، وتراجُع مكانة المدن والبيئات الحضرية ، مقابل هيمنة ونفوذ البيئات البدوية والثقافة القبلية ، وصولا إلى الإنقطاع التام عن إبداع الحضارة والسقوط المريع في هاوية التخلف !!.

نقلا عن / صحيفة (26 سبتمبر)

الحرية الفكرية.. الحضور والغياب شرقا وغربا

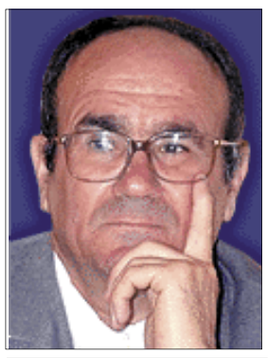

هاشم صالح

خصصت مجلة «التاريخ» الشهرية الفرنسية في عددها الأخير، ملفاً كاملاً عن الحرية الفكرية في كلا العالمين الإسلامي والغربي. ونتبين منها أن هذه الحرية المباحة حالياً في الغرب، كانت ممنوعة أيضاً في العصور السابقة تماماً كما هو عليه الحال في عالمنا العربي والإسلامي المعاصر. فالباحث باتريك بوشرون، الأستاذ في جامعة السوربون، يقول لنا إن حرية الفكر في العصور الوسطى، كانت محصورة جداً ضمن حدود ضيقة دون أن تكون ملغاة تماماً. فالكنيسة المسيحية كانت تفرض على المفكرين خطوطاً حمراً لا ينبغي أن يتعدوها، وأولها: عدم المس بالعقيدة المسيحية أو دراستها دراسة عقلانية نقدية. فمَن تُسوّل له نفسه ذلك، كان جزاؤه العقاب الصارم والفوري. وأكبر دليل على ذلك، ما حصل لأحد أتباع ابن رشد في باريس: سيجير دوبرابان. فبعد أن اصدر المطران فتوى بإدانة أفكار ابن رشد وأرسطو، فإن هذا المفكر اضطر للهرب إلى إيطاليا، حيث وجدوه مقتولاً في غرفته، وضمن ظروف غامضة. وما هي الجريمة التي ارتكبها الرشديون في جامعة باريس آنذاك؟. لقد حاولوا الابتعاد عن الدين قليلاً والاهتمام بالفلسفة فقط. وهذا مناهض للفكر السائد في جامعات أوروبا إبّان القرون الوسطى، ومن بينها جامعة السوربون بالطبع. وكان هناك سقف أعلى للفكر لا يمكن لأحد أن يتجاوزه، يتمثل في ما يلي: الفلسفة ليست مهمة بحد ذاتها، إنما هي مجرد أداة لخدمة اللاهوت المسيحي. انها مجرد وسيلة لتقوية الإيمان بالعقائد المسيحية عن طريق استخدام العقل للبرهنة على صحتها. أما مَن يطالب باستقلالية الفلسفة عن اللاهوت، أو مَن يفضل ارسطو وابن رشد على البابا ورجال الدين، فعليه لعنة الله!..

كان ذلك عام ١٢٧٧، عندما أمر مطران باريس إيتيان طامبييه، بإدانة مائتين وتسع عشرة أطروحة فلسفية تدرس في جامعة باريس. فقد اعتبرها خارجة على الدين المسيحي، وبالتالي مهرطقة. وهكذا دخلت أوروبا في مرحلة طويلة من الصراع بين العقل/ والنقل، أو بين الفلسفة/ والدين.

وفي عام ١٤٨٧، أصدر البابا فتوى بإدانة كتب فلاسفة عصر النهضة، وبخاصة كتب بيك الميراندولي، وحظر على الناس قراءة هذه الكتب، بل وحتى امتلاكها أو طباعتها.

وفي عام ١٦٣٣، حصلت الإدانة اللاهوتية الشهيرة لغاليليو، لأنه يقول بدوران الأرض حول الشمس وليس العكس. وهذه الإدانة أرعبت ديكارت، فامتنع في آخر لحظة عن نشر كتبه. وراح الفيلسوف الفرنسي يمارس الرقابة الذاتية الصارمة على نفسه إلى درجة ان بعضهم اتهمه بالخور والجبن.

لكنهم كانوا مخطئين، فالرجل الذي وصفه هيغل بأنه البطل المقدام للفكر، لم يكن جباناً، لكنه كان يعرف تماماً أن موازين القوى مختلة كلياً لغير صالحه: أي لغير صالح الفلسفة والعقل، لذلك اتبع سياسة التقية أو الرقابة الذاتية، كسلاح فلسفي فعّال لمناوشة الكنيسة المسيحية ورجال الدين. وقال كلمته الشهيرة: الفيلسوف يتقدم مقنّعاً على مسرح التاريخ.. بمعنى أنه لا يكشف أوراقه دفعة واحدة.

فالتهور ليس ضرورياً، بل ويؤدي إلى عكس النتيجة. لذلك راح ينشر كتبه بدون توقيع في أحيان عديدة، أو بأسماء مستعارة. وهكذا استطاع أن يمشي في فتوحاته أو كشوفاته الفلسفية إلى مداها الأخير، وأن يقدمها كهدية للأجيال القادمة.

ولو أنه كان متهوراً استفزازياً لقتلوه وهو في عزّ عطائه ولكنا خسرنا الفلسفة الديكارتية أو قسماً كبيراً منها. ويمكن أن نقول الشيء ذاته عن سبينوزا، وفولتير، وديدرو، وعشرات غيرهم، وبالتالي فالمفكر الكبير ينبغي أن يحافظ على نفسه ليس من أجله هو، إنما من أجلنا نحن، ومن أجل تنوير البشرية وهدايتها إلى طريق الحقيقة.

أما في ما يخص العالم الإسلامي الذي يعيش الآن نفس الحالة الظلامية التي كانت تعيشها أوروبا في العصور الوسطى، فإن التحديات المطروحة عليه هي ذاتها. ويرى المفكر التونسي عبد الوهاب المؤدب، أن كل ما أبدع من أشياء عظيمة في مجال الشعر والأدب والفكر، كان خارجاً على رجال الدين أو مضاداً لدوغمائيتهم الخانقة.

ويضرب على ذلك مثلاً بشار بن برد، أو أبو نواس، أو الأخطل، أو عمر الخيام، أو المعري، أو ابن الراوندي، أو ابن عربي، أو ابن رشد، أو أبو بكر الرازي، أو ابن سينا.. إلخ.

وبعض هؤلاء تم تكفيرهم ودفعوا الثمن باهظاً، لكن بعضهم الآخر نجوا بجلودهم. فبشار بن برد، وابن المقفع قتلا في حين انه لم يحصل أي شيء لابن الراوندي الذي كان أشد خطراً منهم.. والواقع أن الخليفة كان يستطيع في أي لحظة أن يهدد الفلاسفة والشعراء عن طريق وشاية الفقهاء والقضاة ورجال الدين بهم والتشكيك بعقيدتهم. وكان يستطيع أن يضع حدوداً لحرية التفكير لا يمكن لأحد أن يتعداها. لكن وحدهم الذين تعدوها أو اخترقوها، أصبحوا كباراً وخلدوا أسماءهم على صفحة التاريخ.

مهما يكن من أمر، فإن المفكر التونسي التنويري المحض، يعتقد بأنه كانت هناك حرية نسبية للفكر إبّان العصر الذهبي من عمر الحضارة العربية الإسلامية الكلاسيكية.. ولم يحصل الانغلاق الفكري الكامل إلا لاحقاً وعلى مراحل. عندئذ ابتدأ العالم الإسلامي يدخل فعلاً في الظلمات، وهي ظلمات لم نخرج منها حتى الآن، بل ربما كنا نعيش الآن أحلك لحظاتها.

الانغلاق الأول، بحسب رأيه، حصل في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي: أي في زمن السلجوقيين الأتراك والمنظّر الكبير لعهدهم: أبو حامد الغزالي (مات عام ١١١١). عندئذ اعتقد المسلمون بأنهم ختموا العلم أو وصلوا به إلى الذروة: ذروة المعرفة الكلية المطلقة التي لا معرفة بعدها. بالطبع فإن الغزالي هو بطل هذه المرحلة دون منازع. ولا تزال عناوين كتبه الرائعة ترنّ في آذاننا كالجواهر واللآلئ أو كالذهب المصفى: الاقتصاد في الاعتقاد، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، مقاصد الفلاسفة، تهافت الفلاسفة، مشكاة الأنوار، القسطاس المستقيم، المنقذ من الضلال.. إلخ. هذا دون أن ننسى احياء علوم الدين.. لقد نجح الغزالي في بلورة تركيبة فكرية تدقيقية ضخمة يصعب تجاوزها، ولذلك أصبح دليلاً هادياً للمسلمين على مدار الألف سنة القادمة عن طريق بلورة أخلاق نظرية وعملية، وكذلك عقيدة ناجزة ونهائية. لكنه بإنكاره لمفهوم السببيّة وإغراقه في التصوف والغيبيات، قضى على مفهوم العقلانية وكل إنجازات المعتزلة والفلاسفة لمدة ألف سنة أيضاً. ولم يستطع ابن رشد أن يوقف تأثيره الكاسح على العالم الإسلامي عندما تصدى له في كتابه الكبير: تهافت التهافت. وهكذا راح العالم الإسلامي يغوص رويداً رويداً في الظلمات والتواكل والجهل والانقطاع عن حركة العلم والمعرفة. وكان أن تأخر المسلمون وتقدم غيرهم عليهم وسبقوهم بسنوات ضوئية.. وأما الانغلاق الفكري الثاني الذي أجهز على حرية الفكر في العالم العربي والإسلامي فقد حصل في المنعطف التاريخي الفاصل بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

ثم يردف عبد الوهاب المؤدب قائلاً: ثم كانت الطامة الكبرى في عصرنا الراهن، ظهور حسن البنا وحركة الاخوان المسلمين التي عادت إلى أسلوب التكفير الذي دشنه الأزارقة الخوارج لأول مرة في تاريخ الإسلام بعد التحكيم بين علي ومعاوية. وقد نجح البنا في مصادرة المشروع الإصلاحي العقلاني الوسطي المنفتح للامام محمد عبده وجمال الدين الأفغاني، وقضى عليه في نهاية المطاف. ونحن الآن ندفع ثمن هذه المصادرة أو ذلك الاجهاض لكل هذه الحركة الإصلاحية الواعدة ولكل عصر النهضة أيضاً.

كاتب سوري

ما هي الدولة الإسلامية؟

تركي الحمد

كثيرة هي الكلمات والمصطلحات التي نتخاصم حولها ونتعارك، بل ونهدر دماء بعضنا بعضاً من أجلها، دون تفكير حقيقي في محتواها وما تتضمنه، أو لا تتضمنه، فعلاً. فإذا ما أعملنا العقول فيها وحللناها، وجدنا أنها لا تعني شيئاً، أو تعني ما هو متفق عليه، والنتيجة واحدة. فسيطرة "المألوف" و"البداهة" و"المتوارث" دون تمحيص وتدقيق، تقود في كثير من الأحيان إلى توترات وتشنجات ومشكلات قاتلة، وتبعدنا عن معرفة وتحسس المشاكل الفعلية التي تقف وراء أمراضنا ونواقصنا وسوء حالنا.

كثيرة هي الكلمات التي تجعلنا نعيش في عالم من "الكلام" الذي لا يعدو أن يكون كلاماً لا علاقة له بمشاكلنا الفعلية، لا شراباً أسقى، ولا خبزاً أطعم، أشبه ما يكون بالمخدر الذي يعطي إحساساً وهمياً بالسعادة والإشباع، ولكنه في الحقيقة ينسف الجذور الحقيقية للسعادة والإشباع.

لقد كان حكيم الإغريق (سقراط) يجوب شوارع أثينا طارحاً الأسئلة العقلية التحليلية المعربة لكل ما هو مألوف، أو يبدو بديهياً، أو اكتسب هيمنته من قوة التقليد المتراكم غير الممحص. لم يكن يطرح حلولاً. لأنه لا يعرف "الحلول"، كما يعترف، ولكنه يبدأ الخطوة الأولى في معرفة الحل حين يطرح السؤال المناسب، مثيراً السكون من حوله، دافعاً الجميع إلى الخروج من دائرة الركود الرهيبة، لقد كان سقراط، بإيجاز، يحاول إعادة "الوعي المفقود" في غياهب المألوف والبدهي والتقليدي.

بل إنك إذا نظرت في "مناهج" السلف، عندما كانت الحضارة العربية الإسلامية نصاً مفتوحاً، لوجدت أن القاسم المشترك بين هذه المناهج هو حرقة السؤال قبل برد الجواب. أنظر، مثلاً، إلى تلك الحوارات الرائعة بين أئمة الفقه، بين أحمد والشافعي، أو مالك والليث بن سعد والأوزاعي، أو أبي حنيفة وجعفر الصادق، وغيرهم، والتي كانت تطرح السؤال وتنقضه في ذات الوقت، تحلل الكلمة وتعيد تركيبها، ويخرج الجميع وهم على قناعة من أن رأيهم "صواب يحتمل الخطأ"، على أفضل الأحوال، أو "خطأ حتى يثبت صوابه" على أسوئها.

ونحن اليوم، في هذا الجزء من العالم، أحوج ما نكون إلى مثل هذه المناهج، التي تثير قبل أن تسكن وتهدئ، وتغضب قبل أن ترضي، لأن في ذلك تكمن الحركة، وفي الحركة تكمن الحلول والخروج من أعناق الزجاج.

من هذه الكلمات والمصطلحات والشعارات المتحدث عنها، شعار "الدولة الإسلامية" و"نظام الحكم الإسلامي"، وغيرها من أسماء وعناوين لا تدور فقط حول علاقة الإسلام بالسياسة، ولكن حول صفات وإجراءات محددة لابد أن تتوفر في السلطة أو نظام الحكم كي يكون "إسلامياً"، ولا يكون بهذه الصفة بغير ذلك. والمشكلة تنبع من أن تلك الصفات والإجراءات تختلف اختلافاً كبيراً بين كاتب وآخر، وتيار وآخر، بحيث إنك تخرج في نهاية المطاف خالي الوفاض، غير قادر على شيء من كل ذلك. والتعددية في الطرح والرأي شيء مقبول، بل ومطلوب، إذا وقر في قلب الجميع أن تلك الأطروحات والآراء ليست إلا وجهات نظر، قابلة للدحض والنقض، الأخذ والرد. غير أن ما يجري على الساحة الإسلامية، هو أن معظم ما يطرح من آراء وشعارات يعبر، في زعم أصحابه، عن "الإسلام الحقيقي" الذي لا يراه أي طرف آخر، إسلامياً كان هذا الطرف أو غير ذلك، فرداً كان أو جماعة. وبالتالي، واستناداً إلى هذا "الحق المعرفي"، فإن كل طرف من هؤلاء ينفي ما عداه معرفياً في المجتمع، وسلطوياً في السياسة.

أن التعددية الفكرية والسياسية أمر مرغوب للجميع، طالما قبلت كافة الأطراف "النسبية" في المعرفة، و"الديموقراطية" في السياسة. ولكن معظم التيارات المتحدث عنها، ونكرر "معظم"، لا ترى هذا ولا ذلك، بل هي قطعية في المعرفة، شمولية في السياسة، وهنا تكمن المشكلة.

نعود إلى الموضوع الرئيس ونقول: حين نقول "الدولة الإسلامية" وما يرتبط بها من مصطلحات أخرى، فماذا نقصد بالضبط؟ سؤال أطرحه على نفسي بصوت مرتفع ليس إلا. ولكي نجعل النقاش قصيراً ومركزاً، فإننا لن نخوض في تحليل المفهوم كلمة كلمة، فنعرف الدولة تعريفاً أكاديمياً، واختلاف المعنى من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، ومن لغة إلى أخرى، لن نخوض في كل ذلك، بل نفترض أن المقصود بالدولة هو "السلطة السياسية"، رغم أنها أحد عناصر الدولة، وفق التعريف الأكاديمي وليس كلها، لأنها، أي الدولة، لا تذكر في الأدبيات "الإسلامية" المعاصرة إلا بارتباط مع مصطلحات أخرى تبين أن المقصود بها هو السلطة. باستعراض هذه الأدبيات في إجابة السؤال الآنف، نجد أنها عموماً لا تخرج عن التيارات الأيديولوجية التالية:

هناك من يرى أن الدولة الراشدة (الخلافة الراشدة) كانت هي الدولة الإسلامية الوحيدة في التاريخ، وبنهايتها انتهت الدولة الإسلامية ونظام الحكم الإسلامي، وانقلب الأمر إلى "ملك عضوض"، ابتداء من معاوية بن أبي سفيان وحتى هذه اللحظة. بالنسبة لأصحاب هذا الرأي، على قلتهم، فإنه لا يمكن قيام حكم إسلامي، وبالتالي دولة إسلامية، إلا بشرطين: الشورى والخلافة الشاملة معاً، بحيث لا يغني أحدهما عن الآخر. إذا وافقنا مع هذا الرأي فسوف نقع في إشكالية حضارية: كيف نصنف تاريخنا الإسلامي كله؟ هل نقول كان هناك إسلام، وكان هناك مسلمون، وكانت هناك حضارة إسلامية، ولم يكن هناك دولة إسلامية؟ كيف نصنف دولاً (بالمعنى العربي المصطلح) مثل دولة بني أمية، ودولة بني العباس، وحتى دولة بني عثمان؟ لا ريب أن مثل هذا الرأي يجردنا من كل تاريخ وكل حضارة وكل إضافة ثقافية.

وهناك تيار يقول إن "الإسلامية" مرتبطة تاريخاً وعقيدة بمؤسسة "الخلافة"، حتى وإن انتفت الشروط الأخرى، فلا دولة إسلامية دون خلافة شاملة. وعلى ذلك، فإن الدولة الإسلامية انتهت بسقوط مؤسسة الخلافة. ووفقاً لهذا الرأي، فإن هنالك فترات تاريخية أكثر إسلامية من غيرها، فالخلافة الراشدة هي النموذج الذي قد لا يتكرر، ولكنه يبقى مثالاً يحتذي، غير أن ذلك لا ينفي إسلامية ما عداه. فالإسلامية، وفق هذا الرأي، مثل الإيمان، يزيد وينقص، وليس "يكون" أو "لا يكون" كما هو عند بعض الفرق مثل الخوارج. معنى هذا الرأي أنه لا وجود لدولة إسلامية منذ سقوط الخلافة العثمانية في أوائل هذا القرن. لكن مثل هذا الرأي غير عملي وغير واقعي، إذ إنه ينفي الشرعية الإسلامية عن أي نظام أو حركة ترفع هذا الشعار في رقعة من الأرض لا تشمل كل الأمة الإسلامية"، بالإضافة إلى أنه يحرم الدول الإسلامية الحديثة (أي ذات السكان المسلمين) من الهوية النابعة من الدين والتاريخ والحضارة والثقافة.

وهناك تيار، بل تيارات ترى أن معيار "الإسلامية" هو تطبيق الشريعة، بغض النظر عن أي مسائل أخرى. فالدولة الإسلامية هي تلك المطبقة للشريعة، وغير ذلك لا يمكن أن يتصف بهذه الصفة. مثل هذا الرأي لا تقبله تيارات "إسلامية" أخرى، ترى أن مجرد التطبيق القانوني للشرع لا يعطيه الصبغة الإسلامية ما لم يتصف بصفات أخرى، تختلف من تيار إلى آخر. بالإضافة إلى ذلك، فإن الاقتصار على مثل هذا المعيار، من الناحية الموضوعية، سوف يخرج معظم الدول الإسلامية المعاصرة من إسلاميتها، وهذا أمر لا يستقيم، إذ إنه يختزل الإسلام إلى نظام قانوني وحسب، نازعاً أبعاده الأخرى، الحضارية